خطوة
ملحق العدد ٣٦ - ٢٠١٩

خالِد والأَلْوان

قصة: أحمد طوسون
رسوم: رشا منير

كان خالدٌ ولداً يتيماً، يعيشُ في بيتٍ صغيرٍ مع أمِّه حياةً هادئةً وادعةً، برغمِ أنه لا يملكُ من الحياةِ إلا القليل!. قميصاً وبنطلوناً للصيفِ.. وسترة صوفية يرتديها في الشتاء.. وبطانية يفترشُها فوقَ الحصيرِ، وأخرى يلتحفُ بها في الشتاءِ، لكنها لا تمنع عن جسدِه البردَ والصقيعَ.

وعندما تحاولُ أمُّه أن تواسيَه وتَعدُه إن تفوقَ ونجحَ في دراسته، أن يتغيرَ حالهما ويعوضا ما يعيشانه من فقرٍ وعوزٍ، يقول مستنكرا:

- ومَنْ قالَ إنّنا فقيران؟

ثم ينطُّ كأرنب جبلي ويمدُّ يديه ويفتحُ النافذةَ، ويشيرُ إلى الخارجِ قائلاً:

- من يمتلك ذلك الهواء العليل..

والنهر السلسبيل.. والخضرة اليانعة.. والشمس الضاحكة، والقمر المضيء؟!

تضمُّه أمُّه إلى حضنِها سعيدةً وهي تُغالبُ دموعَها..

فكلُّ أمٍّ تتمنى في نفسِها أن تقطفَ النجومَ والأقمارَ وتقدمَها في طبقٍ لصغارِها، لكن ما باليدِ حيلة، تربتُ الأمُّ على ظهرِه، وتقولُ له: باركَ الله فيكَ على قناعتِك ورضاك.

وبالفعل كان خالدٌ راضياً وقانعاً، ولم تكن له مطالبُ كثيرةٌ كغيرِه من الأولادِ والبناتِ..كان أكثرُ ما يحبه بعد أداءِ واجباتِه ودروسِه، دفترَ الرسمِ وعلبةَ الألوانِ.. يحملُهما ويذهبُ ليجلسَ على مقعد حجري عندَ حافةِ النهرِ، يفتحُ دفترَه ويمسكُ بالألوانِ بين يديه.. اللونُ الأزرقُ يرسمُ سماءً زرقاءَ صافيةً، ونهراً فياضاً.. واللونُ الأبيض يرسمُ سحابةً بيضاءَ وادعةً.. واللونُ الأخضر يرسمُ عشباً ناعماً كفرو الأرانبِ.. وشجرةَ سروٍ كبيرةً تنحني بأغصانِها للونِ الرمادي الذي ظلَّلَ حولَ ساقِها..

بينما اللون البني يرسمُ قشورَه البنيةَ الداكنةَ..
في انتظارِ الصيادِ الذي أخرجَ صنَّارَته من النهرِ
وسحبَ السمكةَ التي اصطادَها ووضعَها في السلةِ مع باقي
الصيدِ شاكراً ربه على رزقِه الوفيرِ، ليذهبَ ويرتاحَ تحتَ
ظلِّ أغصانِها الوارفةِ، مستمتعاً بغناءِ الكروانِ الذي حطَّ فوقَ أغصانِها.

لكن فجأة راحَت السماءُ ترعدُ بصوتٍ مخيفٍ.. قطّبَ خالدٌ جبينَه، وخشيَ أن يتساقطَ المطرُ على الصيادِ المسكينِ الذي أرادَ أن يستريحَ بعضَ الوقتِ قبل أن يذهبَ إلى السوقِ ويبيع صيدَه.. نظرَ دهشاً إلى السحابةِ البيضاءِ الوادعةِ، وسألَها:

- مِن أين أتى هذا الصوت؟

زمَّت السحابةُ شفتيْها وضمَّتهما بما يعني أنَّها لا تعرف، فقد كانت صغيرةً على أن تعرفَ إجاباتٍ عن كلِّ الأسئلةِ التي توجه لها.. ولكنها طالما لا تعرف فعليها أن تسألَ لتعرفَ وتتعلمَ..

ثم التفتت إلى صديقِها الكروانِ الذي كان ما يزال يغني، ورددت السؤالَ عليه: من أين أتى هذا الصوت؟

انزعجَ الكروانُ من سؤالِ السحابةِ، فهو لا يحب مقاطعته في أثناء الغناء، وقالَ بلا مبالاةٍ:لم أسمعْ شيئاً!

ثم عاودَ الغناءَ من جديدٍ.

نظرَتِ السحابةُ إلى شجرةِ السروِ، وقالَتْ في نفسِها: (إنَّها كبيرةٌ، وربما كانت تعرفُ أكثرَ).. وسألتها إن كانت تعرفُ مصدرَ ذلك الصوت؟
هزَّت الشجرةُ أغصانَها ونفخَتْ أوراقَها زهواً، وقالَتْ:بالطبع.. لقد سمعته مراراً وتكراراً.. إنَّه رعدٌ ينتجُ عن تصادمِ السحابِ بعضِه ببعض.

تلفتت السحابةُ حولَها، فلم تجدْ سحاباً آخرَ لتصطدمَ به.. ولم تفهمْ لماذا تدعي عليها الشجرةُ بمثل ذلك الإدعاء!.. قطّبت جبينَها غضباً، وسقطت من عينيها دمعةٌ، لم تستطعْ منعَها بعد أن شعرَت بالظلمِ من اتهامِ الشجرةِ لها، رغم أنَّها لم تصطدمْ بأحدٍ.

تنبَّه خالدٌ حين سقطَتْ قطرةُ المطرِ على وجهه، وتطلعَ إلى السماءِ الملبدةِ بالغيوم، فأسرعَ يُغلقُ دفترَه ويجمعُ ألوانَه قبل أن يسقطَ المطرُ ويتلفَ لوحتَه التي رسمها، وقالَ متعجباً: شتاءُ هذا العام أتى مبكراً!

***

سقطَ المطرُ غزيراً ليروي الأرضَ ويسقي الزرعَ ويغسلَ أوراقَ الأشجارِ والأزهار..

كان خالدٌ يُحبُّ اللعبَ تحتَ زخاتِ المطرِ، لكنَّه حرصَ على العودةِ إلى بيتِه كي لا يبلله المطرُ ويصيبه بالبردِ، ويتلف لوحتَه.. وضع الدفتر تحت ملابسه، وانطلق عائداً إلى بيته.. وكلما زادت زخات المطر، زادت وتسارعت خطواته.

بالقرب من شجرة الجميز العجوز، وقف خالد فجأة، فظنت الغيمة أن الولد الصغير يتحداها ولا يعبأ بقطرات مطرها، فألقت بالمزيد والمزيد من قطراتها عليه.
خالد لم يشعر بها؛ لأنه كان يُمْعِنُ في التفكير بالشيخ الفقير الذي رآه راقداً بملابسه الرثة تحت الجميزة، والمطر سقط فوقه وبلل ملابسه.

- يا له من مسكين!
قال خالد في نفسه، وأفاق على رعدة بجسده بعد أن تشبعت ملابسه بقطرات المطر، فمضى مسرعاً يتلمس الطريق إلى بيته.

على صوت الرياح الباردة التي لا تهدأ وتصفر هازئة بكل ما يعترض طريقها: ووش.. ووش.. ووووش. استيقظ خالد، ونظر من خلف زجاج النافذة وهو يرتعد من البرد، فلم يجد شمس الشتاء الشاحبة..كان من الواضح أن غيمة كبيرة حجزتها خلفها!.. ووجد قطرات المطر تجمعن في حفر ولم يتبخرن.. وكلما استرجع صورة الشيخ الفقير الذي نام تحت الجميزة في تلك الليلة الشاتية دون غطاء، ذرفت عيناه دمعة وارتجف جسده، وشعر بالحزن لأنه لم يستطع أن يفعل له شيئاً.

كانت الصورة تطارده، عندما احتضنته أمه، وسألته عن سبب استيقاظه مبكراً في هذا البرد الشديد، برغم أن اليوم الجمعة ولن يذهب إلى المدرسة.

- لاشيء يا أمي.. لا شيء.

قال خالد والتحف بغطائه القديم، وأخرج دفتره وألوانه.

وحين وقعت أصابعه على اللوحة التي رسمها
فوجئ بالسحابة البيضاء تبكي وتتساقط دموعها..
قال خالد: ربما تبكي لأنها وحيدة ولا تلعب مع أحد!

وأمسك باللون الأبيض ورسم غيمة كبيرة لتلعب معها..

كان الكروان قد اختبأ في عشه خوفاً من أن تبلله دموع السحابة، وسقطت دمعة على وجه الصياد وأيقظته.. وأسرع ليلحق بالسوق ويبيع سمكة ليشتري ملابس لصغاره تقيهم من البرد.. أما السمكة الثانية فسيتركها لطعامهم.. والسمكة الثالثة سيعطيها لمن لم يعطه البحر من خيره، وسيعود إلى أولاده بدون طعام.

- يا له من صياد طيب. لِمَ لا أكون مثله وأساعد الشيخ الفقير بما أستطيع؟!
هكذا قال خالد لنفسه، وسارع بإغلاق دفتر الرسم.. وشدَّ البطانية التي يفرشها فوق الحصير، وينام فوقها، ولفها جيداً، وهرع إلى أمه التي كانت تُعَدُّالطعام.

قصَّ خالد على أمه حكاية الشيخ الذي نام تحت المطر دون غطاء، وعن الصياد الذي تبرع بإحدى سمكاته حتى لا يعود الآباء إلى صغارهم دون عشاء.

- على الأقل نحن نملك بيتاً يحمينا من المطر ومن الرياح الباردة!
قال محاولاً إقناع أمه.

كانت أمه سعيدة بصغيرها الذي يشعر بمشاكل وأوجاع الآخرين، ويحاول مساعدتهم على تجاوزها.. اصطحبت صغيرها ومضيا إلى الشيخ الفقير الذي كان يرتعد من البرد، وتصطك أسنانه القليلة _التي احتفظ بها_ ببعضها البعض، وهو يحاول شكرهما بعد أن أخذ منهما الغطاء، ولفه حول نفسه.

وبرغم أن الرياح الباردة الشديدة صفرت من جديد: (ووش.. ووش.. ووووش)..
والسماء عادت ترعد بشدة: (بو.. بو).. والأمطار سقطت بغزارة: (تش.. تش)..
إلا أن خالداً وأمه كان يجريان في الشوارع سعيديْن، يرفعان أياديهما عالياً إلى السماء في محاولة لاصطياد السحابات البعيدة الغاضبة، التي سرعان ما توارت بعيداً.

أطلت الشمس بوجهها المشرق.. شيئاً فشيئاً بخرت قطرات المطر، وباتا يشعران بدفء غريب لم يشعرا به من قبل!